Journal of Alasmarya University
Volume 7, June 2007

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد السابع، يونيو 2007

في الذكرى المائة لوفاته
الأستاذ الإمام محمد عبده (1849 - 1905م)
صور من التجديد في الفكر ومحاولات في الإصلاح

د. الصديق عمر يعقوب*

في كتابه عن محمد عبده، صدّر الكاتب الأستاذ عباس محمود العقاد هذا الكتاب بهذه الكلمات: « نبدأ هذا الكتاب بفصل عن عصر اليقظة، يليه فصل عن القرية المصرية في ذلك العصر، يليه فصل عن الجامع الأزهر فيما اتصلت به حياة القرية من رسالته الفكرية والاجتماعية؛ لأننا نفضي من كل تاريخ من هذه التواريخ الثلاثة إلى تاريخ صاحب السيرة: أعظم من أنجبته القرية ونهض برسالة الأزهر في عصره عبقري الإصلاح و الهداية محمد عبده ... »[1].

ولعل الأستاذ العقاد قد بدا له على طريقته في كتابة التراجم والسير أن هذه الثلاثة: عصر اليقظة، ووضع القرية المصرية في ذلك العصر، ومركز الأزهر. هذه الثلاثة هي مفتاح الولوج إلى العالم هذا الشيخ القروي الأزهري؛ إذ بدا لكل منها تأثير في تكوين شخصية هذا الإمام المجدد المصلح. ولأن صاحب الذكرى قد تعددت مواهبه

---

* الجامعة الأسمرية.

1 - عباس محمود العقاد: الإمام محمد عبده: التمهيد. صفحة 15 الناشر: دار الكتاب اللبناني، بيروت الطبعة الأولى 1960.

ومذاهبه في الفكر والسياسة والتربية والتعليم واللغة والأدب؛ فقد كثر المترجمون له والكاتبون عن اتجاهاته ومواقفه وعلاقاته بالسياسة وأعلام الثقافة والفكر داخل مصر وخارجها.

ولعل أوسع التراجم للأستاذ الإمام هو هذا السِفْر الكبير الذي أعده تلميذه النجيب الشيخ محمد رشيد رضا، صاحب المنارين: تفسير المنار ومجلة المنار. هذا السفر الذي تجاوزت صفحات أجزائه الثلاثة ألفين ومائة صفحة، ونشره صاحب المنار تحت عنوان: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده[2].

ولعل الشيخ محمد عبده جدير بهذا الوصف الذي أضفاه عليه أستاذ الفلسفة المتميز بآداب القاهرة المرحوم الدكتور عثمان أمين الذي أعد دراسة متخصصة متقنة عن محمد عبده تحت عنوان: رائد الفكر المصري. وهذه الريادة الفكرية لهذا الإمام مرجعها إلى هذه الهزة التي نهض إلى القيام بها في محيطه الأزهري، ثم في دوائر وآفاق أبعد تناول بقلمه أدق الموضوعات الفكرية، وأحرج المواقف السياسية موافقا أو مخالفا فيها أستاذه جمال الدين، جمعت بين الاثنين ظروف وغايات وطموحات في العمل المشترك من أجل أمة الإسلام الواحدة، في وقت تداعت عليها فيه الأمم من الغرب والشرق.

قد يحسب بعض الناس أن هذه الدائرة الواسعة، وهذا القصد العملي الذي اتسم به فكر محمد عبده، قد نأى بهذا العالم العلم أن يكون فيلسوفا[3]، وما هذا الرأي بصواب

---

2 ـ الطبعة المشار إليها هنا هي الطبعة الثانية للكتاب الصادرة عن دار المنار بمصر عام1367 هـ أما الطبعة الأولى للكتاب فقد صدرت عن دار المنار عام 1931م أي بعد وفاة الشيخ محمد عبده بستٍ وعشرين سنة. ويمكن أن يدرج سبب تأخر ظهور هذه الترجمة كل هذا الوقت ضمن ما أشار إليه الأستاذ طاهر الطناحي وهو مدير دار الهلال في مقدمته القيمة التي صدر بها طبعة دار الهلال لمذكرات الإمام محمد عبده حيث قال وهو يتحدث عن محمد رشيد رضا وتاريخه للأستاذ الإمام: « حيث كان على عرش مصر أبناء محمد علي وإسماعيل توفيق فلم يكن في مقدوره أن يخرج للناس حياة الإمام إخراجا ترضى عنه الحقيقة ويرضى عنه التاريخ كل الرضا».

3 ــ كتب الدكتور عاطف العراقي في هذا السياق يقول:« وإذا كان من الصعب أن نطلق على محمد عبده لفظة « فيلسوف» بالمعنى الاصطلاحي الدقيق إلا أنه ترك لنا العديد من الآراء التي تجعله مجددا من الطراز الأول، ومفكرا لا تخلو كتاباته من الروح الفلسفية« هذا من المقدمات التي صدر بها الدكتور عاطف العراقي أستاذ الفلسفة بآداب القاهرة كتاب الشيخ محمد عبده: الإسلام دين العلم والمدنية. سلسلة كتاب سينا السياسي رقم 1: سينا للنشر ـ القاهرة 1987م.

في الميـزان الصـحيح للفلسـفة وللفيلسـوف، فهـذا الأفق الواسع لأصول المعرفة بكليات الوجـود والحـياة وتحلـيل أبعادهـا بعقلانـية متـزنة، هـذا الـذي وسـم المفكـر الفلسفي الإسلامي في أزهى عصوره.

الكـتابة عـن الشـيخ محمـد عـبده في الذكـرى المائـة لـوفاته تـبدو أهميتها بعدة اعتـبارات، لا يتأتـى فصـلها عـن بعضـها؛ فهـذا التفكـيك يـنأى بهـا عـن الفهم ويفقدها جوهـرها، فالشـيخ محمـد عبده واحد من مئات الشباب الأزهريين من جيله وهو واحد مـن عشرات آلاف الأزهريين كان صادقا مع نفسه ومع الأزهر ومع المجتمع من حوله حـين دوت صـرخته في جنبات الأزهر داعيا إلى نفض الغبار عن محتويات هذا المعهد العـريق وإلى النهضـة والـتجديد والحياة، وإلى إعادة النظر في مناهج التعليم في الأزهر على كل المستويات.

وهو لم يكتف في هذا الاتجاه بالدعوة ولكنه باشر التغيير بنفسه مع من استجاب لدعوته، فكانت دروسه في اللغة العربية بفروعها ذات مذاق لم يعهده الأزهريون في ذلك العصـر، كـذلك كانـت حلقـة تفسـير القرآن الكريم مدخلاً إلى دائرة التفسير من أوسع الأبواب. ولم يتحرج من الاجتهاد في فهم النص وإن خالف القدامى الذين لم يكن أقرانه من الأزهريين يحومون حول حماهم.

لقد أزال الإمام الشيخ الحاجز الذي كان فاصلا بين العلوم الإسلامية على الطريقة الأزهـرية وبـين الحـياة وبخاصـة الحـياة الاجتماعية والحياة السياسية. ونحسب في هذا السـياق أن رقـباء الحكومة الإنجليزية في مصر كانوا معنيين برصد حركة الشيخ محمد عبده داخل الأزهر وخارجه في مصر وخارج مصر في الشام وفي الغرب الإسلامي وفي الغـرب حـيث كـان لـه مـع جمـال الـدين في باريس مقام محمود ونشاط مرصود على المستويين الفكري النقدي والسياسي المعارض للاحتلال والهيمنة.

لم يـدون الشـيخ محمـد عبده في مذكراته كل نشاطاته ومواقفه. وما دون من كل ذلـك لم يكـن مهـتما بجمعـه وتـرتيبه في حـياته الـتي لم تتجاوز سنيها ستا وخمسين. ولأهمـية كـل ذلك في أحداث وموجهات تاريخ مصر الحديث، فقد عني بهذه الجوانب مـن بعـد نفـر مـن الكاتـبين يجمعـون مـا تفـرق مـن تـراث الإمام ويحللونه في سياقه التاريخـي والسياسـي والفكـري كـل وفـق رؤيـته، من هنا تبدو الصورة متكاملة الأجزاء للقـارئ المعاصـر، حـين تتوفـر لديـه جملـة هـذه المصـادر التي يتصدرها ما كتبه هذا

الأزهري العنيد الذي لم يحظ الأزهر من أمثاله على امتداد تاريخه إلا بالقليل[4].

يأخذ أحد الكاتبين على السيد محمد رشيد رضا في ترجمته للأستاذ الإمام أنه قد «عمد إلى شيء لم يسبق إليه مترجم لحياة عظيم من عظماء التاريخ ولا لتلميذ يكتب عن تاريخ أستاذه، فقد وضع تاريخ الشيخ محمد عبده وما قام به من أعمال وكأنه يضع تاريخا لنفسه أيضا، فقد لا ترى فصلا أو بحثا للسيد محمد رشيد رضا عن الأستاذ الإمام إلا وقد أشرك فيه نفسه، وكأن حياته جزء من حياة الإمام، بل بلغت به حماسته لنفسه أن جعل عمله مكملا لأعمال الإمام في بحوثه وآرائه وكتبه، ككتاب التوحيد وتفسير القرآن الكريم، ويميز ذلك مما كتبه أو ألقاه من بحوث ودروس.

وقد روى عن الإمام أبياتا قالها قبل وفاته، وهو على فراش الموت، يدعو الإمام فيها الله تعالى أن يجعل السيد محمد رشيد رضا خلفا له على دين الإسلام، يضيء نهجه ويسير على طريقه ويماثله لطفا وعلما وحكمة، وهذه الأبيات هي:

ولست أبالي أن يقال محمد	أَبَلَّ أم اكتظت عليه المآتمُ
ولكنَّ دينا قد أردت صلاحه	أحاذر أن تقضي عليه العمائم
وللناس آمال يرجّون نيلها	إذا مت ماتت واضمحلت عزائم
فيا رب إن قدرت رجعي قربة	إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدا	(رشيدا) يضئ النهج والليل قاتم
يماثلني نطقا وعلما وحكمة	ويشبه مني السيف والسيف صارم

وسواء أكانت هذه الأبيات للشيخ محمد عبده أم للسيد محمد رشيد رضا الذي رواها عنه، فإنها تدل على عنايته بنفسه وإيمانه بأنه خليفته في الإصلاح الإسلامي. وقد استولى على الكثير من آرائه واقتنع بأن له الحق في طبعها وشرحها والزيادة عليها دون

4 - لتبين حركة الإصلاح في مناهج الأزهر التعليمية والمعارضة التي كان الشيخ محمد عبده يواجههما في هذا المجال من المهم أن يرجع القارئ إلى ما كتبه المستشرق جوميين في دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة: الأزهر مع اعتبار أهمية الرجوع إلى مصادره في كتابة هذه المادة: دائرة المعارف الإسلامية صفحة 18ـ 225 من الجزء 1 المجلد الثالث. طبعة دار الشعب.

أحد غيره من تلامذة الأستاذ الإمام»[5].

في هـذا الـنقد الـرقيق مـن قـبل هذا الكاتب لصنيع السيد محمد رشيد رضا، آثر تلاميذ الشيخ لديه، في هـذا الـنقد على هذه الصورة من الأدب والرفق ما فيه من أدب الحـوار، وإن شابته نزعة لا تخلو من حَميّة تظهر هنا وهناك لدى كتّاب يستحوذ عليهم شـعور بالـتفوق العـام لمواطنـيهم دون غيرهـم من بني الأوطان الأخرى، وهي نزعة لم تظهر في شيء مما تهيأت لنا قراءته من كتابات الأستاذ محمد عبده.

وقد يحسن أن نضيف إلى هذا التعليق على هذا النقد أن السيد محمد رشيد رضا كـان جديـرا بهذا الإيثار من قبل أستاذه الشيخ محمد عبده؛ لأنه هو الذي اجتهد في نشر أفكـاره في الإصـلاح على قاعدة الإسلام، وهو الذي تابع وتتبع واستقصى دروس الإمام في الجامـع الأزهـر مفسـرا للقـرآن الكـريم بمنهج جديد غير معهود من قبل لأحد من الأزهـريين، فكانـت هذه الدروس هي روح ولب تفسير المنار الذي عنى بجمعه وترتيبه وطـبعه ونشـره صـاحب المـنار، هـذا ويضاف إلى ذلك أن صاحب المنار هو ومن معه تبـنوا هـذا الخـط الإصـلاحي الإسـلامي العام للشيخ محمد عبده دون غيرهم، من رفقاء الشيخ وتلاميذه الذين تفرقت بهم السبل فيما بعد.

حياة الإمام بقلمه

في الـتقديم لمذكـراته بقلمـه يطالـع القارئ نبرة فيها نقد لوضع ثقافي وفيها ثناء علـى وضـع آخـر مغايـر، وهـي إلى جانـب هـذا وذاك تعطي للقارئ انطباعا بأن البعد العلمـي الحركـي هو الأثير لدى صاحب هذه المذكرات، وهذا الانطباع يؤكد صدقه أن معظـم مـا كتـبه الشـيخ محمـد عـبده قـد جـاء علـى غير المعهود في الكتابة حول هذه الموضوعات مثل: الفلسفة، وعلم الكلام، وفنون البلاغة، والأدب. وتفسير هذه الظاهرة لا يحـتاج إلى كـثير تأمـل فدائرة الحركة الواسعة لا تتيح لمن يلاحق كل أطرافها أن يجد متسعا من الجهد والوقت لأكثر من النظر في قواعدها وأصولها لينتهي إلى المفيد فيها.

مـع اعتـبار ما اتسم به عصر الشيخ محمد عبده من تطورات متسارعة وسياسات متقلـبة وعلاقات متشابكة وأفكار متناقضة، لعل أشدها تناقضا صور المجتمعات الغربية بكل أوضاعها في مقابل صور المجتمعات الإسلامية بكل أوضاعها كذلك. فهذا التناقض

5ـ طاهر الطناحي في تقديمه لمذكرات الشيخ محمد عبده. طبعة دار الهلال صفحة 6.

بين الصورتين هنا وهناك لم يكن لينتج لرجل عاقل عالم أن يوقف حياته على حلقات مفرغة فارغة من المحتوى العلمي، تتحلق فيه العمائم في صحن الأزهر وفي أروقته يتجادلون في كل شيء إلا فيما هو ذو صلة بحياة الناس، فكان من اللازم أن تثور على هذا الوضع الآسن عقول ونفوس من داخل الأزهر في كل جيل.

لكن ثورة الشيخ محمد عبده كان لها مذاق خاص، فكان له بها من الأثر ما لم يكن لغيره؛ لأنه قد حلل الأوضاع وحدد الغايات ومعها حدد المسالك والوسائل. وتبدو هنا قضية ذات أهمية قد تكفي الإشارة إليها ليتابعها من يشاء في مظانها، قضية هي مفترق الطريق بين الشيخ محمد عبده وبين أستاذه جمال الدين: مفترق طريق في الفكر ومنهج الإصلاح لكن هذا الاختلاف لم يفسد ما بين التلميذ وأستاذه من المودة والألفة والتعاون والتكامل والعمل المشترك، من أجل القيام بإصلاح ما يمكن إصلاحه من أوضاع سائدة في العالم الإسلامي، وهي أوضاع كانت ترصدها أطماع من قبل دول في الغرب، تتربص بالعالم الإسلامي الدوائر.

وقد يحسن أن نشير هنا إلى هذه المفارقة، وهي مفارقة ذات أبعاد:

بعدها الأول في الأزهر، الأزهر الذي كان له من قبل دور محسوب على كل المستويات، وهذا الدور كانت تحتله قيادات في الأزهر تعتمد على قاعدة عريضة وعميقة من الشعب، وتعتمد على اكتفاء ذاتي تحققه أوقاف لم تجرؤ حكومة من قبل على الهيمنة عليها. كان صوت الأزهر يرتفع فيقيم رأس الحكم أو يهوي به، فكيف تبدو المفارقة بين ذات الأزهر القوي الفاعل المهاب وبين أزهر اليوم؟ !.

أما البعد الثاني لهذه المفارقة فهو دور العالم المسلم، أو إن شئنا الشيخ المعمم الذي كتب عنه من كتب فقال:« كانت العمامة الأزهرية في إفريقيا خطراً يثير الرعب في قلوب المستعمرين والمبشرين (مبعوثي الكنيسة) فكانوا يقولون: إن هذا العمامة البيضاء أخطر علينا من القنبلة الذرية »[6].

نعم هو كذلك كان، وهو كذلك سيكون حين يعود الأزهر إلى مركزه، ويعود الأزهريون أو هذا الجيل من الأزهريين إلى العمامة البيضاء المضيئة يزيحون ظلمات

6ـ محمد دياب: قضايا فكرية وثقافية صفحة 7 الكتاب صادر عن الهيئة المصرية للكتاب سلسلة المكتبة الثقافية رقم 320 طبعة 1975م

الكفـر والإلحـاد، ويتعاونون مع من سواهم من علماء الأمة على إيقاف زحف المضلين المـزيفين للإسـلام من الداخل، ولمن يظاهرونهم من الخارج. و لا تحسبن هذا - أخي القـارئ - من رنين الخطابة أو من لغو الحديث، لكنه إقرار وتقرير لوعد الله في محكم التنزيل، وهو وعد مبناه سنة الله في الخلق وفي الحياة، وهذه الحقيقة القرآنية الكونية كم اجـتهد الشـيخ محمـد عبده في تقريرها ضمن ما كتب من تحليلات وتعليقات على ما تناوله بالشرح والبيان من آيات القرآن[7].

مقتبسات من ترجمة الشيخ محمد عبده لنفسه بقلمه

ومـا مـن ريـب في أن مـا كتبه الشيخ بنفسه عن حياته وتطلعاته ونشاطه الفكري الإصـلاحي، هـذا الـذي كتـبه هـو الأجدر بالاعتبار لخلوه من الإسقاطات والاحتمالات والـتأويلات. كـتب الشـيخ في صـدارة مذكـراته «نشأت كما نشأ كل واحد من الجمهور الأعظـم مـن الطبقة الوسطى من سكان مصر ودخلت فيما يدخلون فيه ... ارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سـلف الأمـة قبل ظهور الخلاف والرجوع في كسب معارفه إلى ينابيعه الأولى، واعتباره مـن ضـمن مـوازين العقـل البشـري الـتي وضـعها الله لـترد من شططه وتقلل من خلطه وخبطه، لتتم حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني.

وإنه (يعني الدين) على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعثا على البحث في أسرار الكـون، داعـيا إلى احـترام الحقائق الثابتة مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل.

كـل هـذا أُعـده عمـلا واحـدا وقـد خالفتُ في الدعوة إليه رأي الفئتين العظيمتين

7ـ يمكـن الـرجوع إلى مـا هـو مـدرج في هـذا السياق ما كتبه الشيخ محمد عبده في كتاب: دروس من القرآن الكريم. إعداد وتقديم. طاهر الطناحي. طبعة دار الهلال. القاهرة دون تاريخ وقد صدّر الأستاذ الطناحـي الكـتاب بترجمـة وجيـزة لحياة الشيخ محمد عبده. وأوسع مادة من هذا الكتاب ما عرضه صـاحب المـنار مـن تعليقات للشيخ محمد عبده أثناء دروسه في التفسير وفي كتاب صاحب المنار: الوحـي المحمـدي مـا يمكـن اعتـباره مـن إيحاءات دروس وأحاديث الأستاذ الإمام. يراجع في هذا السـياق كل من: تفسير القرآن الحكيم المسمى: تفسير المنار. تأليف السيد محمد رشيد رضا. طباعة ونشـر الهيـئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة 1972م، الوحي المحمدي لمؤلفه: الشيخ محمد رشيد رضـا. الطـبعة الأولى 1352هـ. والطـبعة المشـار إليها هنا هي طبعة مكتبة الزهراء للإعلام العربي. القاهرة 1408هـ.

اللـتين يتركـب مـنهما جسم الأمة: طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم، وطلاب فنون هذا العصر ومن في ناحيتهم »[8].

هـذا هـو أحـد الأمـرين العظـيمين اللذين شغل بهما هذا المفكر المصلح ودأب على العمل من أجل تحقيقهما، في محيط ديني وثقافي منقسم على نفسه في شأنهما بين أقصـى اليمين وأقصـى اليسـار. وتـبدو الصـورة أو أظهر معالمها ماثلة في المجتمعات الإسـلامية حتـى الـيوم بعـد مضي قرن بتمامه، مع متغيرات تدفع بهذه المجتمعات دفعا قـويا بعـيدا عـن دائـرة الإسـلام، مع اعتبار ما استجد خلال هذا القرن من خطط الغرب ومشاريعه ومد وسائل إعلامه المتطور، في مقابل تراجع داخل العالم الإسلامي بعيدا عن الإسلام بمفهومه الشمولي تحت ضغوط من الداخل ومن الخارج في تظاهر وتناغم بين التيار التغريبي الذي شاءت تسميته تمويها أو تسفيها باسم العلمانية.

وبعـد عصـر محمـد عـبده استجد مـن عـوامل ضـعف الأمـة وضـعف علاقتها بالإسـلام، تفكك وحدتها السياسية والاقتصادية والثقافية على نحو أسوأ مما كانت عليه قبل مائة عام.

أمـا حقـيقة مـا يشـير إلـيه ويـؤكد علـيه الشيخ محمد عبده من هذا الوئام، وهذا الانسـجام بين هذه المفردات المتوافقة المتشابكة: العقل والدين والعلم، فإن هذه الحقيقة على الرغم من أصولها القرآنية وبراهينها البينة فلا يزال القائلون فيها أو المتقولون عليها بين تجاذب وأخذ ورد، والنتيجة حتى الآن هي في الوسط الإسلامي العام عزلة بالإسلام تحت تأثير إعلامي واسع الانتشار، وكأن المعادلة هي أن الكنيسة في أصولها ونصوصها في معزل عن العقل والعلم والحياة؛ لأن هذه الحياة وفق النصوص الكنسية المقدسة هي ملكـوت الشـيطان، ومـادام الأمـر كذلك في الكنيسة وفي الغرب فليكن الأمر كذلك في الإسلام ولدى الوعي العام بين المسلمين.

ولتُـتخذ لإقـرار ذلـك كـل الوسـائل والمسالك من التزييف للإسلام، ومن صور الهجـوم عليه وتشويه تاريخ أمته، ورمي من ينتمي إلى مشروع العودة بالأمة الشاردة في أنظمـة حـياتها إلى الإسـلام في أصـول نظامـه ودقائـق تشريعاته وتنظيماته، رمي هؤلاء بالخروج والشرود والتمرد والتطرف والإرهاب.

---

8 ـ مذكرات الإمام محمد عبده صفحة 18 مصدر سابق

والآن تـزداد هـذه المعادلـة تعقـيداً بسـبب التداعيات المتوالية الناشئة عن ضعف متـزايد في الطـرف الإسلامي الذي انتهى به الأمر إلى وضع، يقابله فيه طرف آخر يزداد قوة وتماسكاً بين دول الغرب الآن. تبدو صورة العالم الإسلامي الآن أشد قتامة مما كان عليه الوضع منذ مائة عام.

الأمـر العظـيم الثانـي الـذي عني به الأستاذ الإمام صاحب الذكرى، هو أمر اللغة العـربية. يقول الشيخ في مذكراته: « أما الأمر الثاني فهو إصلاح أساليب اللغة العربية في التحريـر سـواء كـان في المخاطـبات الـرسمية من دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما تنشـره الجـرائد علـى الكافـة منشـأ أو مترجما من لغات أخرى أو في المراسلات بين الناس »[9].

يصـنف الشـيخ هـذه الأنمـاط مـن اللغـة المستعملة على هذا النحو، من الركاكة والسـجع الثقـيل أو التكلف في الأساليب. وقد باشر الشيخ بقلمه محاولة الإصلاح وتهيأ لـه قـدر مـن ذلـك، بسـبب تعـدد وتـنوع كـتاباته مـن خـلال علاقاته بعدد من الصحف والمجـلات وأعمـال الـدواوين. ولكـن ما شأن اللغة العربية الآن في الأقطار العربية: في الأقطـار العـربية الآن مسـخ مـن اللغـة العربية في الوسط الثقافي وفي مراكز يفترض أن تكـون معاقـل للغـة العـربية: كلـيات اللغـة وكلـيات الآداب لكن اللغة في هذه المعاقل تصرخ، وتكاد تموت بأقلام من يكتبون بها إلا من رحم ربك وقليل ما هم.

وفي مصـر حـيث نشـأت محاولـة الإصـلاح من قبل الشيخ محمد عبده مزاحمة اللغات الأوربية للغة الناس الأصلية على أشدها الآن، مع حمأة انتشار مدارس اللغات في كـل المسـتويات، والمصـري المعوز هو الذي لا تتهيأ لأولاده –وهم في سن الروضة– فرصـة الالـتحاق بهـذه المدارس التي قد يتوهم بعض الناس، أو يوهم بأن هذه المدارس إنمـا تـزود روادهـا بـالعلم، إن مـع العلم نمط ثقافة وسلوكا تربويا وشعورا ،يتدرج مع الطفـل بـأن اللغـة التي يدرس بها لغة أسمى وأرقى من لغة قومه ولغة قرآنه وهو كتاب دين يؤمن به.

وأقطـار عربية شبيهة الأوضاع بما هو في مصر، بل هو أسوأ ولا نحسب الأستاذ الإمـام إلا مستشـعراً لأوضاع، تسوء فيها علاقة الناس باللغة العربية بسبب الجمود الذي انتهـى بهـا أهلـها إلـيه. وتلـك الأوضـاع الـتي كانـت مـنذ قرن هاجسا هي الماثلة الآن،

9 ـ المذكرات الصفحة ذاتها

ونحسب أن الحبل على الغارب.

وبعد محاولات الشيخ الإصلاحية لإفهام الناس العلاقة بين العقل والإسلام والعلم وموقفه من اللغة العربية، تستوقفنا هذه المذكرات في مقطع منها، تبدو أهميته باعتبار مضمونه الحقوقي القديم الجديد، حيث مؤشر الارتفاع أو التدني في حياة المجتمعات البشرية؛ لأنه قاسم مشترك بينها. وقد يقدر القارئ بأن هذه القضية المثارة والمشار إليها في هذا المقطع من مذكرات هذا المفكر الرائد، هي من البداهة بحيث لا يماري فيها أحد، وهذا التقدير هو مجرد تنظير، أما الواقع الذي استدعى من محمد عبده أن يعرض لهذه القضية في صدارة مذكراته فهو أنه عاش وعايش أوضاعا هي أوضاع مأساوية في ميزان الحق والعدل والحياة الإنسانية.

وشيء آخر هو أن الشيخ صاحب الذكرى يكتب ما يكتب، وأمامه تجربتان في هذا السياق: تجربة عاشها ويعيشها هو في وطنه ويشاركه فيها كل مسلم في وطنه. وتجربة أخرى تناقضها في الغرب في حياة المواطن الغربي، وهي تجربة قام بفحصها عن قرب وهو يعيش في باريس أثناء منفاه يشاهد ويقرأ ويسمع ويكتب. ما هي هذه القضية الحقوقية التي حظيت باهتمام كبير من قلم محمد عبده، فأدرجها في هذا المقطع من مذكراته؟، يقول:« وهناك أمر آخر(بعد ذينك الأمرين العظيمين) كنت من دعاته والناس جميعا في عمى عنه وبعد عن تعقله ... ولكنه هو الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بسبب خلو مجتمعهم منه، وذلك هو: التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ... نعم كنت ممن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها، وهي هذه الأمة التي لم يخطر لها هذا الخاطر على بال من مدة تزيد على عشرين قرنا، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم -وإن وجبت طاعته- هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول وبالفعل.

جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه والظلم قابض على صولجانه ويد الظالم من حديد، والناس كلهم عبيد له. أي عبيد، نعم، إني في كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ولا الرئيس المطاع، غير أني كنت روح الدعوة وهي لا تزال في كثير مما قلته قائمة ولا أبرح أدعو إلى عقيدة في الدين، وأطالب بإتمام الإصلاح في اللغة وقد قارب. أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ولِيَدِ الله بعد ذلك تدبيره؛ لأنني قد عرفت أنه

ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه، وتقوم على تنميته السنين الطوال، فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنى به الآن والله المستعان»[10].

القراءة المتأنية لهذا النص من مذكرات صاحب الذكرى الأستاذ الإمام، تعطي انطباعا صادقا بأن الشيخ محمد عبده ذو فكر عملي برؤى شمولية، تتجاوز النمط الفكري المتحجر الموجه للفلسفة، إلى خط بعينه يناقضه خط آخر يقابله في الفلسفات التاريخية القديمة أو الحديثة والمعاصرة. إنه فكر يتعامل مع الواقع ولكن بفكر وتعقل وتحليل واستنتاج ومراجعة.

ولو سار الفكر الإسلامي في هذا الخط منذ قرن إلى الآن، لتحقق له قدر من التأصيل ومن الحركة المواكبة لتطور حياة المجتمعات الإسلامية، ثم بعد كل هذا قد كان من الممكن أن يتحقق له ولأعلامه قدر من الذاتية والاستقلالية وتحقيق طرف من الهوية الحضارية، بدل هذا التذبذب الذي انتهى إليه بين مذاهب ومدارس الفكر في الغرب، هذه الصورة من تبعية فكرنا المعاصر يدركها القارئ حين يقرأ لأعلام فكرنا الذين اشتركوا في كتابة مواد موسوعتنا الفلسفية: الموسومة بـ «الموسوعة الفلسفية العربية» التي حضر فيها الغرب وغاب العرب.

ثم ماذا يمكن القول تعليقا على هذا الجزء الأخير المدرج في مذكرات الأستاذ محمد عبده حول مسألة أو قضية القضايا في العالم الإسلامي في حياة المجتمعات الإسلامية، وهي قضية (الحقوق والواجبات)؟، تتداخل أبعاد هذه القضية في واقعها وإن حاول الشيخ أن يعرضها في صورة مبسطة لعامة قراء مذكراته ومراجعة ما قام به من تجديد وإصلاح، قضية الحقوق والواجبات في المجتمعات الإسلامية تعاني كثيرا من صور الخلل والاختزال والتجاوز. ويكتنفها الإغضاء والتجاهل والتجهيل والجهل، وهي في أحسن الأحوال تدرج نظريا ضمن وثائق دستورية ومدونات قانونية، ثم هي منتهكة بعد ذلك من قبل معديها.

والكفة الراجحة في هذه المجتمعات هي دائما للواجبات على الأفراد والجماعات. لقد كانت لكلمات الإمام أهمية، وكان لها وقع آنذاك، لكن وسائل الإعلام الآن كثر ضجيجها، حتى أصمت الآذان وانتهى الرأي العام في العالم الإسلامي إلى الاستسلام لشعور طاغ مؤداه أنهم ليس لهم حقوق، إنما هم مثقلون بواجبات.

10 ـ المذكرات صفحة 19.

فإذا تساءلنا بعد هذا لماذا هذا؟. فالجواب آت ضمن ما أورده الشيخ محمد عبده في نهاية عرضه لموقفه، والجهد الذي بذله من أجل وضع حد لهذا التجاوز، إنها مسألة غرس وطول نفس. أي مسألة تربية لنشء يشب، وينمو فيه الشعور بأن الحقوق والواجبات مركب واحد. وهذه الصورة لم تتحقق خلال هذه السنوات المائة التي تفصلنا عن تلك الكلمات لصاحب هذه المذكرات.

تستوقف القارئ لمذكرات الشيخ حادثة لها أكثر من دلالة، يقول صاحب الذكرى والمذكرات: « أحد أخوال أبي واسمه الشيخ درويش، سبقت له أسفار إلى صحراء ليبيا، ووصل في أسفاره إلى طرابلس الغرب، وجلس إلى السيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الأستانة وتوفي بها. وتعلم جدي الشيخ درويش عند السيد محمد المدني شيئاً من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية. وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه »[11] هذه العلاقة بين الشيخ محمد عبده وبين خال أبيه الشيخ درويش، إنما استوقفت قلم الشيخ محمد عبده ليدونها ضمن مذكراته، لما لها من أثر لاحق في حياته، هذا الأثر كان بعض النزوع إلى شيء، مما ألف الناس تسميته: تصوفا. وإنما هو في البيان النبوي مرتبة عالية من الإيمان، سأل عنها أمين الوحي جبريل عليه السلام الرسول ﷺ وهو في جمع من الصحابة رضوان الله عليهم: « ما الإحسان؟ » فكان جواب الرسول: « أن تعبد الله كأنك تراه ... »، وتلزم الإشارة هنا إلى أن تطورا، قد نشأ لاحقا بين أحفاد الشيخ المدني، تمثل في نشأة الطريقة المدنية، متفرعة من الشاذلية، وعن تصوف الشيخ محمد عبده كتب الأستاذ العقاد في ترجمته للأستاذ الإمام، وهي ترجمة تتبع فيها العقاد مفردات هذه المذكرات، مع قدر معتبر من التحليل والموازنة والاستنباط وبعض الاستطراد، يقول العقاد وهو يكتب عن الإمام في هذا المقام مقام التصوف مفسرا ومعللا: نستطيع أن نعلم عن تلك الصوفية أنها شيء غير الجذب والتواكل، وغير الكسل والزهد في أعمال المعيشة ... ولا يخلو مذهب صوفي قط من التفرقة بين الظاهر والباطن، وبين شواغل الجسد وشواغل الروح، ولكن هذه التفرقة قد تتباعد بالفوارق كما يتباعد النقيضان، وقد تتباعد بها كما يتباعد اللباب والقشور.

ومثل هذه الصوفية هي التي نعقلها من مزاج رجل، كالشيخ محمد عبده، له بنية الفلاح السليم، ونشاط الرياضي المقدام، وثقة العقل المستقل. وفي الأسرة كلها -على ما

---

11 ـ المذكرات صفحة 30

يظهر- نفحة من هذه الصوفية العاملة التي تؤمن بحقيقة لهذه الدنيا وراء قشورها الظاهرة»[12].

على هذا النحو من التحليل والتعليل، ينبغي أن تفهم إشارة الشيخ محمد عبده في مذكراته إلى الشيخ درويش، وإلى الكتاب الذي قرأه معه، فكانت طريقة الشيخ الكبير العامل الأول الذي جذب هذا الفتى النجيب إلى عالم الكتب، بعد أن كان من قبل شديد النفور من التعليم بسبب طرائق المعلمين.

ويجمل بنا هنا أن نشير إلى عبارة لطيفة جامعة، أوردها الشيخ محمد عبده تعقيبا آخر على لقاءاته مع الشيخ درويش: «لم تمض علي بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد، واتسع لي ما كان ضيقاً وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرا، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيرا، وتفرقت عني جميع الهموم، ولم يبق لي إلا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ولم أجد إماما يرشدني إلى ما وجهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام، من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد»[13].

حرارة هذه الكلمات وصدق لهجة كاتبها على وجازتها، في كل هذا إيحاءات وإرهاصات بما قد حفلت به حياة هذا المفكر من نشاط في مجال الفكر والكتابة والتعليم وإصلاح طرقه ووسائله والتربية المتدرجة باعتبارها القاعدة المعتبرة في كل هذا.

إن ما أدرجه الشيخ محمد عبده في هذه المذكرات، من شجون وشؤون ليدعو القارئ الواعي المتأمل والكاتب المعلل المحلل، أن يمضي في قراءة هذه المذكرات التي كان الشيخ عازفا عن كتابتها، وكاد يمتنع عن تدوينها لولا إلحاح نفر ممن يقدرون قيمة لمثل هذه الأعمال[14]. وما من قارئ أو كاتب يدرك أبعاد شخصية الشيخ محمد عبده، أو يسبر أغوار نفسه، أو يفسر مواقفه اللاحقة في إصلاح الأزهر والتعليم والصحافة، ومعارضة الاحتلال الأجنبي والاستبداد، والاهتمام بإظهار صورة الإسلام على حقيقته، والحوار مع ممثلي الكنائس، ما من قارئ أو كاتب يدرك مجمل كل هذا وتفصيلاته،

12 ـ عباس محمود العقاد: الإمام محمد عبده مصدر سابق صفحة 80.

13 ـ المذكرات صفحة 32.

14 ـ عرض الشيخ محمد عبده لهذه المسألة في مطلع المذكرات.

دون أن يقرأ ما دونه هذا العالم المفكر الإمام ضمن هذه المذكرات على وجازتها، وعلى ضن صاحبها بالكثير مما كان يمكن أن يدرج فيها، وقد حفلت به كتابات الإمام، يضاف إليها ما كتبه عنه مريدوه وتلاميذه، وما أضافه إلى ذلك كتاب لاحقون.

صور ونماذج من كتابات الأستاذ الإمام

المقصود بهذه الصور من الكتابة هو تبين قدر من اهتمامات هذا العالم المصلح من خلال بعض مصنفاته التي جمعت ونشرت في طبعات مستقلة. أما كتاباته في دائرة الإصلاح العام أو في إصلاح بعض المؤسسات مثل الأزهر والمؤسسة القضائية ونظام التعليم والإفتاء واللغة، فلسنا معنيين بها في هذه الصفحات وفق القصد من كتابتها، ونحيل القارئ إلى الجزئين الأول والثاني من كتاب: تاريخ الإمام، لتلميذه منشئ المنار الأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا، ففيهما استقصاء لما كتب الشيخ محمد عبده في الصحافة المصرية والعربية في الشام والغربية كذلك. ومن اللازم الإشارة هنا إلى أن صاحب المنار وإن أبدى أنه صنف كتابات الأستاذ الإمام تحت فصول غير أن هذا التنظيم اللازم المفيد لم يتم -ربما بسبب رؤية صاحب المنار التاريخية-. على أن هذا الكتاب قد يحتاج إلى قراءة نقدية فاحصة؛ لأن فيه ما قد كتب برؤية ذاتية للمؤلف.

يكفي أن نحيل القارئ هنا إلى بعض الموضوعات التي كتب فيها الشيخ محمد عبده، في الإطار العام للإصلاح، وفي الإطار الفكري الخاص الذي يمكن النظر إلى كتابة الأستاذ الإمام فيه على أنها تتضمن نزوعا من الكاتب إلى نمط من أنماط التجديد في القضايا والموضوعات أو في طرائق البحث والتطوير، فمن بين عناوين ومقالات ورسائل وردود الأستاذ الإمام نقرأ:

1- حوار مع رئيس تحرير مجلة الجامعة الأستاذ فرح أنطون وهو مسيحي قصد فيما كتب في مجلته إلى الانتقاص من الإسلام والطعن فيه. دار الحوار بين الاثنين على صفحات هذه المجلة في أكثر من عدد[15].

2 - في فلسفة التربية.

3- الكتابة والقلم.

4- العلوم الكلامية والدعوة إلى العلوم العصرية.

5- وخامة الرشوة.

6- العفة ولوازمها.

7- القوة والقانون.

---

15 ـ صور الحوار هذه نقلها محمد رشيد رضا في كتابه: تاريخ الأستاذ الإمام مصدر سابق صفحة 805ـ 816.

8- منتدياتنا وأحاديثها.
9- خطأ العقلاء.
10- اختلاف القوانين باختلاف الأمم.
11- تأثير التعليم في الدين والعقيدة.
12- الحياة السياسية.
13- الشورى.
14- الشورى والقانون.

هذه الموضوعات مع غيرها، كانت مما نشر للأستاذ الإمام في الأهرام، ولا يحتاج القارئ إلى كثير تأمل ليدرك أن هذه المقالات، كانت تعالج مشكلات في المحيط الفكري والسياسي والاجتماعي، مع اعتبار أن كتابات الشيخ محمد عبده في هذه المجالات الإصلاحية جميعها، الكاتب متجه بها إلى مشكلات كان يعيشها ويعايشها. ومن هذه المشكلات ما هو متصل بالحياة العامة في مصر، مع اعتبار علاقاتها بالخارج، لكن من هذه المشكلات ما هو أوسع دائرة مما كان يعاني منه العالم الإسلامي الذي لم يكن آنذاك قد تفككت وحدته وكتلته، مثل ما هو عليه الآن، لذا كانت هذه النبرة العامة هي التي طغت على جملة مقالات العروة الوثقى بقلمي محرريها الشيخ محمد عبده وأستاذه جمال الدين، لكن المتمرس على قراءة كتابات الاثنين يسهل عليه أن يصنف هذه المقالات بين الأستاذ وتلميذه، وإن كانت روح التجديد والإصلاح لدى الاثنين واحدة.

ومن بين موضوعات الكتابة في العروة الوثقى، ما يمكن أن نرجح أنه من إعداد الشيخ محمد عبده؛ لأنه متجاوب مع موضوعات قد طرقها من قبل، قبل رحلته إلى باريس؛ ولأن الأسلوب يشي أو يكاد يشي بهذه النسبة.

من الموضوعات التي نشرت في العروة الوثقى في باريس -ونرجح أن الشيخ محمد عبده هو الذي كتبها لما تحمل من سمات كتابته مفردات وأسلوبا وفكراً-:

1- النصرانية والإسلام وأهلهما: ومن المفردات التي أدرجها الأستاذ الإمام تحت هذا العنوان: موازنة بين الأمة التي تنتمي إلى الإسلام وبين الأمم الغربية التي تنتمي إلى المسيحية، وهي موازنة لها دلالتها الآن، كما كانت لها دلالتها منذ قرن من الزمان. يقول الأستاذ الإمام في هذا السياق: « إن الديانة المسيحية بنيت على المسالمة والمياسرة وجاءت ... باطراح الملك والسلطة ونبذ الدنيا وبهرجها ووعظت بوجوب الخضوع لكل سلطان يحكم المتدين بها ومن يقف على مباني هذه الديانة ... يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي، المنتسبين في عقائدهم إليه فإنهم ... يسارعون في افتتاح الممالك والتغلب على الأقطار الشاسعة، ويخترعون كل يوم فنا جديدا من فنون

الحـرب ويـبدعون في اختراع الآلات الحربية القاتلة ... حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها.

الديانـة الإسـلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة، ورفض كـل قانـون يخالـف شـريعتها، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامهـا. فالناظر في أصول هذه الديانة، ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل يحكم حكما لا ريـب فـيه بـأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم ... ومن تأمل في آية: ﴿ وَأَعِـدُّوا لَهُـمْ مَـا اسْـتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال: من الآية 60] أيقن أن من صبغ بهذا الدين، فقـد صـبغ بحـب الغلـبة، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل له سبيلها والسعي إليها بقدر الطاقة البشـرية ... ولكـن مـع كـل ذلـك تأخـذه الدهشـة مـن أحـوال المتمسـكين بهذا الدين لهذه الأوقـات»[16]. ويمضي الشيخ محمد عبده في بحثه هذا مظهرا التناقضات هنا وهناك محللا لواقـع الأوضـاع المقلوبة، ملمحا أحيانا إلى ما قد يكون قد تسرب إلى الوسط الإسلامي من مضامين كتاب النصارى على ألسنة بعض الواعظين.

ومن الموضوعات التي نشرها الشيخ الإمام في العروة الوثقى على هذا النوع من العرض والتحليل:

2 - سبات من له حق وحراك من لا حق له.
3 - الفضائل والرذائل وأثرهما.
4 - الوحدة والسيادة.
5 - الأمة وسلطة الحاكم المستبد.
6 - ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: 105]
7 - بريطانيا ويدها الناعمة.
8 - نصيحة في الأدب.
9 - العدالة الإنجليزية.
10 - الإنجليز والإسلام.
11 - وداد الإنجليز للمسلمين.
12 - الدهريون في الهند

على هذا النحو كان اختيار هذا الأزهري في منفاه بباريس موضوعات الكتابة في تلك الآونة، وهي موضوعات تنبض بالحركة ومنها ما هو كذلك حتى الآن بعد قرن من الـزمان، ومـن الأوضـاع الـراهنة في العلاقـات بين العالم الإسلامي ما كتب حوله الشيخ محمـد عبده محذرا والرائد لا يكذب أهله. يشار هنا إلى أن الشيخ محمد رشيد رضا قد

16ـ العروة الوثقى صفحة 49 الناشر دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى 1389هـ

أفرد الجزء الثاني من كتابه (تاريخ الأستاذ الإمام) لعرض ما كتبه الشيخ محمد عبده من مقالات وأبحاث في مجال الإصلاح الاجتماعي وموضوعات الأدب. وجدير بالاعتبار والتنويه ما ضمنه الأستاذ العقاد كتابه عن الإمام محمد عبده من وقفات وتحليلات ضافية حول فكر الإمام ونهجه في الإصلاح والتجديد، مستعرضا نصوصا مما كتب من مقالات وكتب.

بعد هذا الذي سلف من عموميات ومفردات ومحطات في حياة الشيخ محمد عبده مع نماذج من مقالاته الإصلاحية، بعد هذا تلزم وقفة متأنية مع نصوص من أصول كتابات هذا المفكر العلم. من كتابات الشيخ محمد عبده ما حظي بشهرة لما كان له من سعة الانتشار لأهمية موضوعه لدى هذه الفئة أو تلك من القراء خاصتهم وعامتهم، ولعل كتابه الوجيز في العقيدة (رسالة التوحيد) قد حظي بهذه الشهرة وهذا الانتشار دون غيره أو أكثر من غيره مع خصوصيته، ولكن لاعتبار خاص لما كتب الأستاذ في العروة الوثقى. وأهمية «رسالة التوحيد» لا تكمن في مواضيعها ومسائلها فهذه المواضيع الإيمانية، ومسائل العقيدة مطروقة في كتب العقيدة قديما وحديثا، لكن أهمية «رسالة التوحيد» تبدو من خلال: الرؤية النقدية التي صدر بها الشيخ محمد عبده كتابه هذا. وهذه الرؤية قد تضمنت نقدا قويا، بل حادا لطرائق المتكلمين الجدلية في عرضهم لأصول الدين، ومسالكهم في البرهنة عليها بتعقيدات منطقية لفظية، أدت بهؤلاء العلماء إلى اختلافات حول هذه الموضوعات التي لا يليق بالمتصدي لعرضها، والبحث فيها أن يستدرج أو يستدرج إلى هذه المتاهات. ويعتمد الشيخ محمد عبده في نقده ثم في بيانه للطريقة المثلى في عرض أصول الدين، أو بالأحرى قواعد التوحيد يعتمد على بيان العروة الوثقى، أي العلاقة الثابتة بين نصوص الوحي ومسلمات صريح العقل. وهو في نصوص رسالة التوحيد يورد من النصوص والشواهد ما يحقق الاعتماد على هذا المنهج الذي يرى الأخذ به لازماً.

وقد يتساءل بعض الناس هنا: هل هذا تجديد لخط الاعتزال؟، والجواب: لا؛ لأن الشيخ يبدي تذمراً من الجدل في عرض هذه القواعد الأصول التي يقوم عليها الدين. أما الخط الاعتزالي فهو الجدل بلا حدود. على أن الفكر الاعتزالي، وإن بدا تعامله ظاهرا مع النص القرآني على نحو قد يبدو مقبولا لدى الباحث، لكن التأويل هو القاعدة في التعامل مع نص الوحي إذا خالف أصول المعتزلة. والفرق بَيِّنٌ بين من يعتمد على أصول اصطنع لها مفاهيم خاصة، وبين من معتمده صريح العقل. لذلك جاءت صياغات

المسائل في رسالة التوحيد على نحو من الإيجاز والظهور، مع أن الشيخ لم يرتبها في صورتها النهائية، إنما ألقاها دروسا في إحدى المدارس أو المعاهد الشرعية في الشام، حين كان منفيا هناك، فالتف حوله لفيف من طلبة العلم، يلقي عليهم هذه الدروس في التوحيد والبلاغة والمنطق والتفسير وكم هي تسمية معبرة وموفقة أن يسمي هذا المصنف الموجز «رسالة التوحيد»، إذ لا توجد منظومة دينية منذ بعثة محمد ﷺ قاعدتها وجوهرها التوحيد الخالص إلا الإسلام. وهذه حقيقة لا نرتاب في قصد الشيخ الإمام لها للتأكيد عليها، ودورنا نحن زيادة التأكيد على هذا التأكيد وإذا بلغنا رسالة التوحيد للبشر في كل الأقطار، فلن تكون للناس حجة بعد هذا البلاغ الذي هو الآن على هذا النحو مفقود.

ومن المستغرب أن الكتاب الغربيين في عصر الشيخ محمد عبده ومن بعد عصره إلى الآن، قد عنوا بهذا الكتاب: ترجمة له واستشهادا بنصوصه، في حين أن المعنيين بهذه الدراسات الأصولية وبقضية التجديد وتطوير منهج دراسة وعرض أصول الدين هؤلاء، لم يعطوا لهذا الكتاب ما يستحق من الاهتمام والتطوير للمنهج الذي يدعو إليه. وهناك كليات وأقسام متخصصة في هذا المجال، لكنها لا تزال تقدم الخطاب الإيماني لطلابها بلغة الغزالي والنسفي والإيجي، ولغة هؤلاء كانت مفهومة في أجيالهم لكن أحدا منهم لو عاد لأشاح بوجهه عن هذا، ولأثنى على منهج الإمام في رسالة التوحيد.

إن الذي يحكمنا في عرض قواعد أصول الدين للناس وللشباب خاصة في كل الدنيا مسلمين وغير مسلمين، إنما هو المضمون أما منهج العرض والتقديم والاستدلال، وأما لغة الخطاب، فإن الزمان غير الزمان والعقول والأذهان آنذاك غيرها الآن. إلى جانب القضايا الإيمانية الأصولية المبثوثة في كتب المصنفين في أصول الدين قديما وحديثا، تستوقف القارئ مباحث بخصوصها عرضها الأستاذ الإمام على نحو تبدو من خلاله رؤية خاصة يتبناها في المنهج وفي الأسلوب اللازمين لعرض هذه المباحث. من بين هذه المباحث:

1 - كلمات في الصفات «الإلهية» إجمالا.
2 - حسن الأفعال وقبحها.
3 - الرسالة العامة.
4 - حاجة الناس إلى الرسالة.
5 - إمكان الوحي.
6 - وظيفة الرسل عليهم السلام.
7 - رسالة محمد ﷺ.
8 - القرآن.

قد يرد في سياق الحديث عن رسالة التوحيد سؤال مؤداه: ما هي خصوصية هذه الرسالة؟ والجواب هو ما أورده أحد الكاتبين في إيجاز، وهو أن الشيخ محمد عبده في رسالته هذه: «يلقي الأضواء التي تأخذ بيدك وتمهد لك الأجواء ببيان الأهداف من هذا العلم الجليل مع الإيضاح الوافي والربط بين هذا العلم وبين منهج القرآن الكريم في تحريك العقل وراء أدلة وجود الله وتوحيده ... وعمل العقل والمنطق وتحريك الفكر لدى الإنسان، أمور تطالعنا في كل صفحة من الرسالة، فأنى وقع بصرك لا تجد إلا لفتاً وتنبيهاً وحجةً وبرهاناً وترتيباً وموازنةً»(17).

بعد هذا تبقى حقيقة معروفة مسلم بها فحواها أن أصول الإيمان وفروعه قد ضبطت موضوعاتها وأدلتها في القرآن الكريم، وتولى الرسول ﷺ كل ذلك بالبيان. وما ألحق بهذين الأصلين من أفهام أو إضافات أو استدلالات، فإنما هي جهود بشرية يكتنفها الخطأ والصواب، والميزان دائما هو نص الوحي من كتاب أو من ثابت السنة. ولا يرتاب متخصص في هذا النوع من الفكر والبحث أن أصول الإيمان كما عرضها القرآن قد أُثقلت بركام من جدل الكلام وأثيرت على هامشه جملة من الشكوك والشبهات المصطنعة بعيداً عن فهم الصورة المتكاملة المثلى التي رسمها القرآن لقواعد الإيمان وشعبه وثمراته. ونقدر أن هذه الصورة القرآنية للعقيدة الإسلامية هي التي توجه إليها نظر الأستاذ الإمام في رسالة التوحيد، وغايته أن يلفت إليها الأنظار.

وإذا كان هذا هو المسلك الذي رأي صاحب رسالة التوحيد أنه وحده هو الجدير بأن يسلكه المسلم لفهم العقيدة في نقائها ووضوحها، وغير المسلم ليتبين الإسلام في قاعدته، أراد الإيمان به أم لم يرد، إذا كان هذا، فإن الأستاذ الإمام قد تناول هذا الموضوع في دائرة فكرية واسعة، تجمع بين الفلسفة والكلام، ويمكننا أن نقدر - بعد مراجعة لما كتب في هذه الدائرة التراثية- أنه أكثر ميلا إلى الرؤية الفلسفية منه إلى الطرائق الكلامية، وإن كان الأستاذ العقاد قد دمج بين الدائرتين، فيما كتب في هذا السياق حول: «المصلح الفيلسوف» كتب تحت هذا العنوان يقول برؤية كلية جامعة:

---

17 ـ حول رحلة الأستاذ الإمام منفياً إلى بيروت ودروسه المنتظمة هناك تراجع المقدمة التي صدرت بها هذه الطبعة لرسالة التوحيد بقلم الشيخ حسين يوسف الغزال. الناشر: دار إحياء العلوم. بيروت. الطبعة الثالثة 1399هـ.وقد أشار الشيخ محمد عبده إلى ذلك في مطلع رسالة التوحيد صفحة 41 من هذه الطبعة.

« من دأب الإيمان الديني في الطبائع القوية أنه يقارب بين الروح المثالي والفكر العملي » وبهذا الإيمان يتلاقى في طبيعة المؤمن القوية هذان الخلقان ... ونحسب أن هذا الاتفاق بين الخلقين هو أصح تفسير لتلك السجية البينة في طوية مصلحنا العظيم: أمل لا حد له في الخير وفهم للواقع العملي لا يضل طريقه بين الشعاب المتفرقة في مسالك الإصلاح. ولقد تصوف مصلحنا العظيم زمناً في صباه ولا نخاله ابتعد عن طريق المتصوفة إلى ختام حياته.

وقد درس حكمة الفلاسفة النظريين كما درس فلسفة المعتزلة وعلماء الكلام ومذاهب الفقهاء من أسرى النصوص ومن أصحاب التأويل ولم يكن قط من« أهل الظاهر » الذين يأخذون بالحروف ويدينون بالتقليد ولكنه كذلك لم يكن قط من « أهل الباطن » الذين يفهمون الباطنية على أنها رفض للظاهر ... كان بحثه عن الباطن بحثاً عن حقيقة المعنى الصحيح ... فهو مصلح فيلسوف بكل ما شئنا من معاني الإصلاح والفلسفة، هو مصلح يتصل إصلاحه بالتفكير كما يتصل بالعمل. وهو فيلسوف حين تكون الفلسفة حكمة يروض بها الحكيم نفسه على المسلك الذي ينبغي له كما يراه والغاية التي يسعى إليها كما هداه الفكر إليها ... واستقلال الشيخ محمد عبده بالفكر والنظر ثم استقلاله بالعمل في الإصلاح يفردانه بمذهبه بين مدارس الفلسفة الإسلامية فلا يتيسر ضمه إلى طائفة منها ... فهو مع الفلاسفة والمعتزلة في تحكيم العقل وفي القياس على المنطق والعلوم الكونية ولكنه يخالف رأي الفلاسفة في فهم معنى الوجود ومعنى العلوم بالنسبة إلى الحقيقة الإلهية ويخالف رأي المعتزلة في مجادلاتهم العقيمة حول مسألة الصفات وما تفرع عليها من الكلام عن خلق القرآن ... وقد يحيط بالفلسفة الإلهية في مذهب الأستاذ الإمام من يقرأ تعليقاته على العقائد العضدية ومناقشته في حاشيته للإمام عضد الدين الإيجي والإمام جلال الدين الدواني في شتى المسائل التي تقوم عليها اليوم فلسفة (ما وراء الطبيعة عند الفلاسفة المعاصرين) فإذا أردنا أن نجعل لفلسفة الأستاذ الإمام حدا فاصلا بينه وبين مخالفيه من جماعة المعتزلة والمتكلمين والفلاسفة الأقدمين فالحد الفاصل هنا هو: القدرة على حسم الجدل العقيم بالرجوع إلى حكم العقل السليم أو هو القدرة العملية على المشكلات العقلية »[18].

ربما طال النقل من نص العقاد أو شهادة العقاد هذه، لما فيها من إجمال عن

18 ـ عباس محمود العقاد: الإمام محمد عبده مصدر سابق صفحة 177.

مرتكزات الفكر وموجهات الإصلاح في حياة الأستاذ الإمام. وإلى جانب هذه الغاية من نقل هذا النص، فإن بيت القصيد فيه هو إشارة الأستاذ العقاد إلى العمل العلمي الفكري الفلسفي الكلامي الذي صنفه الشيخ محمد عبده، باحثا فيه حول كتابين من كتب التراث الكلامي المشرب بالفلسفة: الكتاب الأول لعضد الدين الإيجي المتكلم المشهور بكتابه «المواقف» في علم الكلام. والكتاب الثاني شرح للكتاب الأول، وهذا الشرح مصنفه المتكلم جلال الدين الدواني. وعمل الأستاذ الإمام في هذين الكتابين من التراث هو عمل نقدي اختلطت فيه مباحث الكلام بتحليلات الفلسفة. وقد ظهرت دراسة حديثة نسبيا، عني معدها المرحوم الدكتور سليمان دنيا -وكان أستاذاً للفلسفة بكلية أصول الدين جامعة الأزهر- بتقويم تعليقات الأستاذ الإمام على هذه النصوص التراثية[19].

وقارئ هذا العمل للأستاذ الإمام تقابله مفارقة بين مؤلف هذا العمل العلمي الكلامي وبين صاحب رسالة التوحيد. ويمكننا أن نقدر أن للأستاذ الإمام مقصدا من تناول هذا العمل التراثي بالعرض والتحليل والنقد، ومن أبعاد هذا المقصد إثبات أن مقالات الكلاميين الكثير منها لا يصمد أمام النقد، وأن الخلط بين الكلام والفلسفة لا ينشئ كلاما سويا ولا فلسفة خالصة، وأن الهدم والبناء في علم الكلام كما في الفلسفة كليهما أمر ميسور.

أما أهمية هذا الكتاب للدكتور سليمان دنيا فتأتي من بعدين:

البعد الأول: هو أن القارئ للمقدمة المبسوطة القيمة يقرأ جملة من المفردات النقدية الموجهة إلى طريقة الشيخ محمد عبده في القبول وفي الرد ما لا يتسنى له قراءتها في كتاب آخر فيما أعلم.

البعد الثاني: هو ما أدرجه المؤلف حول منهج الأستاذ الإمام في البحث وفي النقد. وقد يحسن أن نورد هنا بعض مرتكزات هذا المنهج الفكري النقدي الذي أعطى للأستاذ الإمام هذه الخصوصية، خصوصية نسيج التجديد والإصلاح.

يقول الدكتور سليمان دنيا في المقدمة الضافية التي قدم بها لهذه النصوص الثلاثة،

---

19 ـ معد هذا العمل والتحقيق العلمي هو الأستاذ الدكتور سليمان دنيا. وقد اختار لهذا الكتاب الجامع لنصوص هؤلاء الثلاثة الإيجي والدواني ومحمد عبده اختار له المحقق عنوان: الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين وألحق بهذا العنوان عبارة: عرض وعلاج لأهم مشاكل الفكر البشري بقلم الشيخ محمد عبده صدرت هذه الطبعة في قسمين وهي الطبعة الأولى للكتاب. مكتبة عيسى البابي الحلبي. القاهرة 1377هـ.

وهـو بصـدد الحـديث عـن الأسـتاذ الإمـام: « أذهلـه تحمسـه للحق عن اصطناع وسائل المحاباة أو الرضـوخ لدواعـي العصـبية ... عكـس علـى المجـتمع شـيئا من أثر الحياة الأزهـرية وعكـس علـى الأزهر أو حاول أن يعكس شيئا من أثر الحياة الخارجية ... حاول أن يرضـي أحاسيسـه كلـها فنقل شيئا من الأزهر إلى المجتمع ونقل شيئا من المجتمع إلى الأزهـر ... حـاول أن يقرب بين دنيا الناس ودينهم ... أوتي بيانا مشرقا أخاذا فأبرز آثار عقله في أسلوب واضح رائق ... كان واسع الاطلاع على ما كتب في الإسلام وعن الإسـلام ... أعطـى عقلـه حـريته في الـبحث والفهـم والـنقد ... صـور المذاهب والآراء تصـويرا دقيقا كل الدقة ... هو في نقده يتعالى ويتسامى ... بارع كل البراعة في تشقيق القـول وتحلـيل المسـائل وتوحـيد الآراء ... قـادر كـل القـدرة علـى المـيل بالرأي عن مـتعارف الـناس ... توفـر لـه إنـتاج خصـب دسـم رغم قلته ... لم يقنع بما به كثير من المـؤلفين مـن حكايـة آراء العلماء من قبله ... افترض إمكان الوصول في هذه المشاكل إلى حلول صائبة ومقنعة في الوقت ذاته »[20].

إن كتباً ثلاثة هي –فيما أعلم– أوسع وأدق وأعمق ما كتب الكاتبون عن الأستاذ الإمـام: هـذا الكتاب للدكتور سليمان دنيا وبخاصة في مقدمته. والثاني هو كتاب الأستاذ العقـاد: الإمـام محمـد عـبده. والكتاب الثالث هو كتاب الدكتور عثمان أمين: رائد الفكر المصـري. مـن هـذه الكتب الثلاثة يمكن بناء دراسة وصفية تحليلية نقدية لمنهج الأستاذ الإمـام الفكـري وعملـه الإصلاحي. أورد هنا مسألة واحدة في مجال العقيدة كان للإمام محمـد عـبده فـيها رأي، وكـان هذا الرأي موضع انتقاد تباينت صورتان له –فيما أعلم– صورة نقدية أوردها من أوردها في كتاب له على نحو متعجل، وإن كان مورد النقد بيناً، وصـورة أخـرى جـاء الـنقد فيها لرأي الشيخ محمد عبده في صورة هادئة وبأسلوب فيه رفق وفيه علم.

يقـول الشـيخ محمـد عـبده: « قد يُعَرَّفُ النبي بإنسان فطر على الحق، علما وعملا، بحيث لا يعلم إلا حقا ولا يعمل إلا حقا، على مقتضى الحكمة وذلك يكون بالفطرة، أي لا يحـتاج فـيه إلى الفكـر والنظر ولكن التعليم الإلهي فإن فطر أيضاً على دعوة بَنِي نوعه إلى مـا جـبل عليه فهو رسول أيضا وإلا فهو نبي فقط وليس برسول »[21] هذا التعريف

20 ـ سليمان دنيا: المصدر السابق. المقدمة صفحة 5.

21 ـ المصدر السابق 39.

اعترضه واعترض عليه صاحب كبرى اليقينيات، فأورد التعريف المعروف المألوف في كتب العقيدة قديما وحديثا للنبي والرسول، باعتبار الاصطفاء والوحي الإلهي هو مرتكز النبوة والرسالة ثم أردف:« إذا علمت هذا فإنك لن تؤخذ أو تخدع بالتعريف العجيب الذي اخترعه الشيخ محمد عبده للنبي »[22].

ومع أحقية هذا النقد الموجه إلى رأي الشيخ محمد عبده في تحديد مفهوم النبي والرسول إلا أن المسألة ينبغي أن تعرض بأسلوب علمي محلل هادئ حتى ننتهي إلى قبول هذا الرأي أو رده، وقد كان رد الدكتور سليمان دنيا بينا حين قال: « وعندي أن المسألة ليست مسألة تواضع واصطلاح ولكنها محاولة اكتشاف لمراد الله تعالى من ألفاظ وردت في كتبه المقدسة مثل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ [الأحزاب: من الآية 40]، فعلام اعتمد الشيخ محمد عبده في تفسيره هذا المعنى« للنبي وللرسول »؟، وما يمكن أن يكون مراد الله من هاتين الكلمتين؟، ثم لو كان مراد الشيخ محمد عبده أن لنا أن نطلق لفظي « النبي » و« الرسول » على من ذكرهم من الناس، بصرف النظر عن إمكان إطلاق المعنى الشرعي عليهم أو عدم إمكانه، هل يكون في وسع الشيخ محمد عبده أن يحكم بأن هذا النوع من الأنبياء والرسل جائز وجوده بعد قبض سيدنا محمد ﷺ أم يعتبر رسالة محمد ﷺ ونبوته نهاية أيضا لذلك النوع من الأنبياء والرسل؟.

إن الاعتماد على العقل وحده لا يمكّن من الذهاب إلى هذا الرأي أو ذاك، فماذا لدى الشيخ محمد عبده سوى العقل يبرر له القول بهذا الرأي أو ذاك؟، ثم ماذا عسى يكون « الحق العملي » الذي يفطر عليه من يسميه الشيخ محمد عبده « نبيا »، أو « رسولا »؟، هل يقتصر على ما يسمى الأخلاق الفاضلة، أو يتجاوز ذلك إلى دائرة التحليل والتحريم وضروب العبادات؟ »[23].

هذا الضرب من النقد الفكري الموضوعي في مثل هذه المسائل جدير بأن يستوقف القارئ المسترسل مع كتابات الأستاذ الإمام، فيدرك إلى إي مدى يمكن الاعتماد على مصدر معرفي واحد، وما هي المشكلات الفكرية التي يمكن أن تنشأ

22ـ محمد سعيد رمضان البوطي. كبرى اليقينيات الكونية. صفحة 184 صورة عن الطبعة الثانية دار الفكر المعاصر. بيروت دار الفكر دمشق 1997.

23 ـ سليمان دنيا: الشيخ محمد عبده مصدر سابق صفحة 39.

بسبب المبالغة في هذا الاعتماد. والكاتب أيا كان اتجاهه واختياره ينبغي أن يضع اعتبارا لمن سواه من الكتاب والنقاد في مجاله الخاص، أو في المجال العام للنقد المعرفي بدائرته الواسعة.

وفي سياق النقد الفكري تستوقفنا محطات ذات أهمية في المسار الفكري للأستاذ الإمام، مع اعتبار الزمان والمكان.لقد عنى الشيخ محمد عبده بما يورد على الإسلام من شبهات، يصطنعها كتاب غربيون أو«مستغربون» من هنا يثبت صواب رأي من رأى أن (أكبر ما استفاده العقل السليم المستنير من فكرة الأستاذ الإمام في الإصلاح والحرية الإنسانية أنه أعاد إليه الثقة بعقيدته في هذا العصر الحديث، ورفع من طريقه إلى العمل عقبات الجمود والخرافة والتقليد ... ولهذا كانت ردود الأستاذ الإمام على فلاسفة الغرب ومفكريه أهم وأجدى على المسلم العصري من ردود المدافعين عن الإسلام على جماعات المبشرين المحترفين ... شبهات المفكرين على غرار الفيلسوف «الفرنسي» أرنست رينان والوزير جبراييل هانوتو ... كانت بحاجة إلى المفكر العصري المؤمن بالدين لمواجهة الأفكار العصرية التي لعلها لا تؤمن بالإسلام ولا بغير الإسلام ولكنها تحاصر فكرة المسلم كما تحاصر ضميره بالأسئلة المعلقة في انتظار الجواب من ذي ثقة باعتقاده وذي ثقة بتفكيره وذي طوية لا ترتقي إليها الظنون وكان الأستاذ الإمام مليئا بكل ما يتطلبه العقل المسلم المستنير في عصره من آيات الثقة وحجج الإقناع.

كانت ردوده على رينان وهانوتو ردود من يعلم ما قد علموه عن تواريخ الحضارات وخصائص الشعوب وطبائع الأجناس والسلالات ويزيد عليهم بالإيمان الثابت. وقد كان الأستاذ الإمام - قدس الله روحه - أعلى طبقة من مناظريه في مضمار المناظرة بين المعسكرين المتقابلين. فكان رينان وهانوتو يقابلان بين الإسلام والمسيحية ليقابلا بين المسلمين والمسحيين الأوربيين بخاصة، ويقابلان بعد ذلك بين دعوى الغالب ودعوى المغلوب. ولم ينزل الأستاذ الإمام إلى مضمارهم إلا ليدفع عن عقيدة الإسلام دون أن يقدح في عقيدة المسيحية ... كان أدباء المسيحيين يتسابقون إلى دروسه بمساجد بيروت أيام منفاه»[24].

تلزم الإشارة هنا، ويلزم التقدير في هذا السياق للمادة العلمية التي ضمنها دراسته

24 ـ العقاد: الإمام محمد عبده مصدر سابق صفحة 189.

القيمة بأجزائها الثلاثة كل من الكاتبين المسيحيين: لويس غرديه وجورج قنواتي حول الأستاذ الإمام، بعرض متميز في الإيجاز وفي التوثيق من مصادر إسلامية وغربية، غير أن الكاتبين في المبحث الذي كتباه بعنوان: العمل الجدلي. أي حوار الأستاذ الإمام مع الأطراف المعارضة لحركة الإصلاح التجديدية في الداخل ومع الخارج، ضد الهجمات التي كان يتصورها مسددة ظلما إلى الإسلام. والواقع أن نتائج هذا الجهاد لم تتساو في قدرها: إن حججه التي تستهدف التخلف لدى بعض إخوانه في الدين كانت حقا في مكانها لعلمه التام بالبيئة التي كان فيها يجول، لكن رده على النصرانية لم يخل من أن يكون خاطئا قائما على جهل فعلي، وهذا خطأ يعذر الشيخ عليه إذا عرفنا ثقافته الفكرية علام تقوم: لم يسعه أن يلم بلغة أجنبية إلا في عهد متأخر من حياته. أما معرفته لعلم اللاهوت المسيحي فكانت في الواقع سطحية جدا»[25].

ولعل هذا الجزء الأخير من تعليق الكاتبين ينقصه التثبت والتحقيق وتنقضه كتابات الإمام في هذا المقام. وفي هذا المقام كذلك تلزم الإشارة إلى حوار وسجال تولى فيه الشيخ محمد عبده الرد على مقالات المسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا آنذاك، وفحوى هذه المقالات جملة من الأغاليط والأباطيل حول الإسلام ودعوته، وتولت نشر هذه المقالات صحيفة باريسية، وتولت صحيفة الأهرام نشر بعضها مترجما، وكان ذلك عام 1900م.

وعلى الرغم من مرور قرن على هذا السجال بين الرجلين إلا أنه يمكن القول بأن ما كتبه هانوتو -بدءا أو ردا- هو في الأغلب ينبئ بالانطباع العام للمثقف الغربي، وللغربيين عموما عن الإسلام وأصوله وأمته وتاريخ دعوته، أما ردود الشيخ محمد عبده على هانوتو فإن في مضامينها دلالات على ثوابت تحكم العلاقات بين الإسلام والعالم الإسلامي وبين أمم الغرب، ودلالات غير هذه على متغيرات هي في الغرب إيجابيات وفق تقدير الغربيين لمصالحهم، وهي في العالم الإسلامي سلبيات في ضوء الواقع المعاصر المعاش. فالموقع أو الموقف أو الظهير الذي كان الأستاذ الإمام يتكئ عليه - وهو يحاور هانوتو- هو الآن ظهير متصدع قد أعفى الغرب من مهمة الحوار، لكن

25 ـ نقل هذه الدراسة الموسعة من الفرنسية إلى العربية الشيخ الدكتور صبحي الصالح والأب الدكتور فريد جبر ونشرت بعنوان: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية. والمادة العلمية المشار إليها حول الأستاذ الإمام واردة في الجزء الأول من صفحة 146إلى صفحة 159 الطبعة الثانية الناشر دار العلم للملايين. بيروت 1978م.

قضية الحوار بين منظومتين من طبيعتها أن تكون بين مد وجزر، لذا فإن هذا الحوار بين هـذا العـالم الأزهـري وبـين ذاك المفكر والسياسي الفرنسي جدير بأن يفرد ببحث، نعد القراء به إن شاء الله.

مـن حـق القـارئ أن يسـأل: أين آثار هذا التجديد وهذا الإصلاح من قبل هؤلاء: محمـد عـبده ومـن قـبله ومن بعده من رواد التجديد؟. ومثل هذا السؤال مشروع باعتبار الأوضـاع الـراهنة في العـالم الإسـلامي، ومـنها وضـع التبعية للغرب والخضوع لهيمنته وتفكك وحدة الأمة. وهذه القضية شائكة تشابكت فيها الخطوط والخيوط لكن ما يتصل مـنها بموضوع هذه الورقات هو ما قد أثير في بعض الكتابات المعاصرة، ومنها ما كتبه الدكتور محمد عمارة تحت عنوان: تجديد الفكر الإسلامي: محمد عبده ومدرسته[26].

إن أثـر المفكـر المجـدد المصـلح يكون له امتداد وتكون له نتائج من خلال أمة يكون أمر التطور والتقدم العام فيها منوطا بمؤسسات معينة ومسئولة عن هذا المشروع، وتكـون لـه هـذه النتائج كذلك من خلال عمله هو في حياته على إنشاء مريدين، يتبنون عن قناعة تامة خطه الفكري الإصلاحي، فيتألف من مجموعهم ما يمكن اعتباره مدرسة لها خصوصياتها وعوامل بقائها، مؤثرة في المحيط الفكري الخاص والثقافي الاجتماعي العـام. وفي ضـوء هـذه المؤشـرات أو المؤثرات ومع اعتبار النسبية، فإن مواقف الأستاذ الإمـام في محـيطه الخـاص والعـام، وإن مشـروعه الـتجديدي الإصـلاحي يمكن اعتباره تأسيسـا لمدرسـة، أو بـرؤية أدق وأصـدق المساهمة الأكثر ظهورا وشمولية في تأسيس مدرسـة الإصـلاح والتجديد مع أستاذه جمال الدين. ووفقاً لتصور الدكتور محمد عمارة ونسـبة هـذه المدرسـة الإصـلاحية إلى الشـيخ محمـد عـبده، فإن هذه المدرسة وفق هذا التصور لهذا الكاتب قد مثلت:

(1) الموقـف الوسـط أي: الحق بين باطلين، ولا نعلم من أين جاء الدكتور محمد عمارة بهذا المفهوم لمصطلح « الوسطية ».

(2) الطريق الثالث. أي المعتدل بين طريقين.

(3) الموائمة بين الثوابت - الأصول والمتغيرات - تطرحها وتتجاوزها الحياة.

(4) الأصالة والمعاصرة وفق التعبير الشائع بيننا هذه الأيام.

---

26 ـ صدر هذا البحث ضمن سلسلة كتاب الهلال العدد 360 صفر 1401هـ.

فكان أن قالت مدرسة التجديد هذه:

(1) لا لتيار التغريب الذي أراد أنصاره من المستعمرين وأنصارهم..؛ لأن هذه المدرسة رأت في التغريب أمرا يتجاوز التجديد ورأت فيه ابتلاع أمة عريقة من أصلها العريق كما رأت فيه احتواء حضاريا يجعل هذه الأمة هامشا حضاريا للغرب الاستعماري.

(2) لا «لفكرية» العصور المظلمة التي مثلت الجمود والانحطاط ...

(3) نقد هذه المدرسة لمحاولات التجديد القاصرة عن الوفاء بمتطلبات المواجهة مع تياري التغريب والجمود تلك التي كانت «الحركة الوهابية» نموذجا لها: فهي تجدد عندما تنفض عن عقائد الإسلام ركام البدع والخرافات. لكنها - لبداوتها - تتخذ موقفاً غير ودي من العقل والمدنية الأمر الذي يضعف مقدرة المسلمين عن مواجهة الغرب الاستعماري وتيار التغريب»[27].

ونلاحظ على كتابة الدكتور عمارة في هذا البحث عن الشيخ محمد عبده أنه يوظف النصوص، أو يقرؤها على نحو متجاوز أحيانا، في خدمة فكرة أو خط يتبناه الكاتب، وهذا التوجه بين في الفصل الذي كتبه هنا عن: الإصلاح الديني صفحة 39، وعن الجامعة الإسلامية صفحة 71.

ختام هذه الصفحات حول الأستاذ الإمام في الذكرى المائة لوفاته جملة ملاحظات نجمل فيها بعض المفردات:

1- قد اضطلع الشيخ محمد عبده منذ بدأ يخوض غمار الحياة بعدة مهام يمكن اختصارها في مهمتي الإصلاح والتجديد، وقد استدعى هذا التوجه المبكر لدى الشيخ محمد عبده أن يطل على الفكر الإسلامي والعالمي إطلالة مراجعة وتأمل واستيعاب ونقد وموازنة. وكانت ثمرات هذه المراجعات الفكرية والأدبية والتاريخية إلماما واسعا بقوانين الفكر والاجتماع، مع اعتبار وحضور لروح الإسلام في كل ما يكتب هذا الإمام.

---

27 ــ محمد عمارة: المصدر السابق صفحة 12. نحيل القارئ إلى الدراسة التي قام بها الدكتور محمد عمارة وقدم بها مجموعة كتابات الأستاذ الإمام نشرت الدراسة في ثلاثة أجزاء بعنوان الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده: دراسة وتحقيق. الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت 1974م مع اعتبار ما يلاحظه القارئ لكتابات الدكتور محمد عمارة في صورتين لها: إحداهما صورة كتاباته في مرحلة المد القومي والأخرى اللاحقة في العقود الأخيرة مع حركة التيار الإسلامي.

2- دائـرة الـتجديد والإصـلاح بـدأت لـدى الشيخ محمد عبده، وبدت ضيقة «في الأدب والفلسـفة لكـنه مـا لـبث أن جاوزها وامتد نشاطه إلى دائرة أوسع فاتصل بالأحداث الدينية والاجتماعية والسياسية، وبلغ من بعد مداه أن ألهب في بعض النفوس مشاعر المحبة والحماسة والإعجاب»(28).

3- لعـل مـن أظهـر الأسـباب التي بوأت الشيخ محمد عبده هذا المبوأ وأعلت من شأنه بـين أتـرابه، مـا تهـيأ لـه مـن استقلال الفكر ووضوح الفكرة والعناية الفائقة بمسألة التربـية والتثقيف في حركة دؤوب ضمن دائرة واسعة، أتاحتها له ظروف ومقتضيات المكـان والزمان، وكان نشاطه في هذه السبيل يقوم على قناعة يظاهرها أمل بأن هذا المنهج سوف يؤتي ثماره.

4- إلى جانب المقصد المقدم من كتابة هذه الورقات، وهو تحية المرحوم الأستاذ الإمام والإشـارة والـتذكير والإشـادة بجهـوده في مجال الإصلاح والتجديد بمناسبة الذكرى المائـة لوفاته، إلى جانب هذا المقصد تبدو أهمية إثارة هذه القضايا التي كانت مثارة في عصـر صـاحب الذكـرى منذ مائة عام: كيف سارت وكيف صارت الأمور خلال هـذا القـرن؟، كـيف هـو الوضـع في أمـر الحقـوق والواجـبات الآن بـين الشـعوب والحكـومات؟، هل الحرية في المحيط الإسلامي الآن واقع ماثل أم هي مجرد شعار أو أمنـية؟، هـل تحقـق قـدر مـا سـعى إليه هذا المصلح في مستويات: اللغة العربية وتقـويم اللسان والتعامل مع منظومة المفاهيم والقيم الإسلامية وفق صيغ علمية بينة وعملـية ظاهـرة؟، الحـوار مـع الغـرب مـن مركز الندية بعيدا عن مواقف الاستكانة والتبعـية؟، ومـع كـل هـذا وبعـد كل هذا فما هي الصورة التي يتم على وفقها إحياء ذكـرى هـذا العـالم العَلَـم في مصـر موطـنه وفي العالم الإسلامي مجال حركة عقله وقلبه وثمرات فكره؟.

5- قـد يحسـن أن نـورد هـذه المفاصـل أو المحطات في حياة صاحب الذكرى وفق ما استقصاه ووثقه الأستاذ العقاد في كتابه عن الأستاذ الإمام:

1849: مولد الأستاذ الإمام بقرية محلة نصر قرب طنطا بمصر.

1865: بدء الدراسة بالجامع الأزهر بالقاهرة.

1869: اللقاء الأول بجمال الدين.

28ـ الدكـتور عـثمان أمـين: رائـد الفكـر المصري. الإمام محمد عبده صفحة 93. الناشر مكتبة الأنجلو القاهرة ـ الطبعة الثانية 1969م.

1873: البدء في الكتابة والنشر.
1877: نيله للشهادة العالمية.
1884: السفر إلى باريس.
1899: عين مفتيا لمصر ثم عضوا في مجلس الشورى.
1905: وفاته بمدينة الإسكندرية.

هي أيام لها ذكريات في حياة صاحب الذكرى لكن اليوم المشهود هو مسك الختام يوم وفاة الأستاذ الإمام يوم تتابعت وتزاحمت فيه دعوات المحبين وكلمات المؤبنين ومرثيات الشعراء وكلمات الأدباء. نورد طرفاً منها ختاماً لهذه الصفحات[29]:

محرر صحيفة الأهرام في عددها 8303 الصادر يوم الأربعاء 13\7\1905:
مصباح أضاء في عالم الأدب والفضل والعلم ... رجل والرجال قليل
وأورد محرر جريدة الظاهر في مطلع تأبينه هذا البيت:

وكانت في حياتك لي عظات فأنت اليوم أوعظ منك حيا

أما محرر جريدة اللواء فقد استهل مقاله التأبيني بهذا البيت:

الموت نقّاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

وقد استهل محرر جريدة الصاعقة المقال التأبيني للأستاذ الإمام بهذا البيت:

اليوم نامت أعين بك لم تنم وتسهدت أخرى فعز منامها

أما الشاعر حافظ إبراهيم، وهو من أخص رفقاء الأستاذ الإمام، فمما أورد في مرثيته لفقيده:

وآذَوْك في ذات الإلـــه وأنـكـروا مكانك حتى سودوا الصفحاتِ
رأيـتَ الأذى في جـانـب الله لـذة ورحـت ولم تَهْمِم لـه بشكـاةِ
لقد كنت فيهم كوكبا في غياهب ومعرفة في أنفسٍ نكـراتِ
جمعت لهم بين الهداية والتقى وفرقت بين النور والظلماتِ
أبنت لنا التنزيل حكماً وحكمة ومزقت بين النور والظلماتِ

29 ـ أفرد صاحب كتاب تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الثالث للمرثيات الشعرية والنثرية التي قيلت ونشرت أيام وفاة الأستاذ الإمام محمد عبده.

ووفقت بين الـدين والعلـم والحِـجَى فأطـلعـت نـورا في ثلاثِ جهاتِ
وقـفـت لهـانـوتـو ورينـــانَ وقـفـة أمـدك فيـها الـروح بالنـفـحـاتِ
بكى الشرق فارتجت له الأرض رجة وضاقـت عيـون الـكون بالعبراتِ
بـكـى عـالَم الإسـلام عـالِـم عصـره سـراج الديـاجـي هادم الشبهـاتِ
فيـا ويـح للشُـورى إذا جـد جـدهـا وطـاشـت بهـا الآراء مشتـجـراتِ
ويا ويح للفُتيـا إذا قيـل مـن لـهـا ويا ويـح للخيـرات والصدقـاتِ
بـكـيـنـا عـلـى فـرد وإن بـكـاءنـا عـلـى أنـفـس لله منـقـطـعـاتِ
تعهـدهـا فضـل الإمـام وحـاطـها بإحسـانـه والدهـر غيـر مـواتِ
فيـا منـزلا في عـين شـمس أظـلـني وأرغـم حسـادي وغـم عـداتـي
دعـائـمـه التقـوى وآسـاسـه الـهـدى وفيـه الأيـادي موضـع اللبنـاتِ
عليـك سـلام الله مـالـك مُوحشـا عبوس المغاني مقفر العرصـاتِ
لقـد كنـت مقـصـود الجوانـب آهـلا تطـوف بـك الآمـال مبـتـهـلاتِ
مثـابـة أرزاق ومـهـبـط حـكـمـة ومـطـلـع أنـوار وكنـز عـظـاتِ

ومن مرثية الشاعر الكبير أحمد شوقي للأستاذ الإمام:

مفـسـر آي الله بالأمـس بيننـا قم اليـوم فـسر للـورى آية المـوتِ
رُحمت مصير العالمين كما نرى وكل هنـاء أو عـزاء إلى فـوتِ
هو الدهر: ميـلادٌ فشـغلٌ فمـأتمٌ فذكرٌ كما أبقى الصدى ذاهب الصوتِ

وقد رثى سعيد يازجي المرحوم صاحب الذكرى بأبيات منها:

العلـم مفطـور الحـشـا بتوقـد حزنـا وأبيـات الثنـاء تـرددُ
والمجـد لا عجـب إذا ألفيتـه دنـفاً يفـارقـه إمـام أمجـدُ
مات العلا والجدُّ والإخلاص والـ إقدام لما قيـل مـات محمـدُ
يبكيه أهـل الشـرق أفضلـهم ولا عجبٌ فـإن فقيـدهم متفـردُ
جمدت مياه النيل من حـزن ومن أسف ونيلُ عيونهـا لم يجمـدُ
يا هـاجـرا تلـك الديـار وإنـها أبـدا تـردد ذكركـم وتمجـدُ
قد كنت ترشد أهلها عن غيـهـم واليوم من منهم يقوم ويرشـدُ